2- البحث العلمي و منهج البحث

المنهج في كل علم من العلوم هو الطريقة أو مجموعة الطرق التي يتبعها الباحث للوصول إلى الحقيقة وإلى نتائج ذات قيمة مستلهماً معطيات العقل والوجدان ومستنداً إلى الوثائق التي يتحرّاها .

والمنهج يتحدد تبعاً للمادة التي ندرسها ، فهناك مناهج للعلوم المختلفة تتحدد باختلاف هذه العلوم ، من رياضية تستند إلى الاستنتاج وأخرى طبيعية تستند إلى الاستقراء من ملاحظة وتجريب . ولكن العلوم الإنسانية ـ والأدب فرع منها ـ تستند في دراستها إلى الوثائق والنصوص المكتوبة والمنطوقة واستخلاص النتائج منها . وعلم التاريخ يستند في دراسته أكثر مايستند إلى دراسة الوثائق سواء أكانت أحجاراً أم كتابات منقوشة أم غيرها . ولكن الأدب يسجل الأفكار والعواطف فيما يخرج عن الشاعر أو الكاتب من شعر أو نثر مكتوب أو منطوق ، وعلى الدارس أن يبحث في هذا الكلام ويتحقق من صحته أولاً ثم يبحث في دلالاته ثانياً وهذا مايقودنا إلى منهج علمي في دراسة الأدب .

ونحن لانريد ، فيما سنتطرق إليه في هذا الدرس ، أن نصل إلى مايقودنا إلى النقد الأدبي ، فهذا من باب دراسة طبيعة الأدب وغايته ، وهو إلى البحث النقدي أقرب منه إلى البحث المنهجي . وإنما نبغي ، فيما سنقدّمه في الصفحات الآتية ، أن نبيّن الخطوات التي يجب أن يخطوها الباحث في إعداد بحثه والأسس التي يسير عليها ، وهذا مانسميه بـ «منهج البحث الأدبي» الذي يستطيع الطالب أو الدارس أن يقدّم في ضوئه بحثاً علمياً منهجياً قَدْرَ الإمكان ، كما يدلُّ الكتاب أيضاً على الأصول المعتمدة في تحقيق النصوص .

وفي تاريخنا الأدبي والنقدي لفتات وإشارات إلى مايجب أن يتبعه الباحث أو المحقق من قواعد وأصول ولكنهاقليلة وغير كافية ، وقد ورد بعضها عند نقادنا القدامى أمثال ابن قتيبة والجرجاني وابن رشيق وغيرهم . ثم تتالت دراسات نقدية حديثة عند بعض علمائنا من الأدباء كطه حسين وأحمد أمين ومحمد مندور وشكري محمد عياد وإحسان عباس ومحمد يوسف نجم وغيرهم ، وقد قام بعضهم بتحقيق كتب قديمة قيّمة وتأليف أخرى على جانب من الأهمية في تاريخ البحث الأدبي والنقد الأدبي .

على أن الدراسات الأدبية الحديثة وأساليب التحقيق الحديث أخذت تطرق بابنا عندما أخذنا نطَّلع على الدراسات النقدية الحديثة عند بعض علماء الأدب في الغرب ، وعندما أخذنا نطَّلع في التحقيق على منشورات المستشرقين لبعض كتبنا القديمة التي سلكوا فيها أساليب النشر العلمي ، فحققوا نصوصها وأقاموا لها

الفهارس المختلفة التي تساعد القارىء وتفسح أمامه سبل الرجوع إليها بيسر .

ونستطيع أن نقول إن «منهج البحث الأدبي» لم تتضح لدينا رؤيته ومعالمه إلا منذ أن اطلعنا على كتابات بعض علماء الأدب والنقد أمثال سانت بوف (Sainte-Beuve) وتين (Taine) وبرونتيير (Brunetière) ولانسون (Lanson) ، فقد اتخذ كل منهم منهجاً لدراسة الأدب في سبيل الوصول إلى «علم» للأدب تحدَّد منهجيته وطريقته ، وكانت هذه الكتابات قد صدرت خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين . وقد أشار كل من هؤلاء الأدباء إلى الصعوبات التي تعترض هذه المنهجية وهذا العلم ، وكانت طريقة (لانسون) تطبيق الطريقة التاريخية في دراسة الآثار الأدبية ، وعنده أنها الصورة الوحيدة لجعل الأدب «علماً» . ثم تلاحقت الدراسات والمناقشات بين عدد من أساتذة الأدب من إنكليز وأمريكيين ، وكانت دراسة ويليك (Wellek) ووارين (Warren) في كتابهما «نظرية الأدب» من آخر هذه الدراسات .

على أن الدراسات الحديثة اليوم تفصل بين فكرة دراسة الأدب بوصفه تاريخاً ودراسته بوصفه علماً . وأصبح للأدب دراسة منهجية خاصة تستمد أصولها من مناهج مختلفة لامجال هنا للخوض فيها .

فهناك المنهج التاريخي والمنهج الاجتماعي والمنهج التأثري والمنهج النفسي والمنهج التكاملي وغيرها ، وقد أوضح شوقي

ضيف هذه المناهج في كتابه «البحث الأدبي» ويمكن الرجوع إليه .

على أن الدراسة الأدبية من حيث هي تاريخ ، لاتزال سائدة في مدارسنا وذلك لصعوبة دراسة المادة الأدبية دراسة علمية خاصة تستند إلى النص ومقوماته ، ومع ذلك فقد أخذ مدرسونا الأكفياء يميلون إلى الدراسة النصّيّة دون أن يهملوا الدراسة التاريخية وأثرها في إنارة النص .

لقد كانت دراسة أدبنا في الماضي تعتمد عل الذاتية وعلى الأحكام المطلقة . حقاً إن الأدب ـ شعراً كان أو نثراً ـ هو الكلام الجميل الصادر عن الوجدان ويؤثر في الوجدان ، ولذا فهو لايخلو من الذاتية ولايمكن لدراسته أن تتخلّى عن النظرة الذاتية ، وذلك بسائق طبيعة الأدب نفسه غير أن من الواجب، في الوقت نفسه ، ألا نتخلّى عن جعل دراسته تعتمد على العلمية وفحص الوثائق والنظر في النص من مختلف وجوهه ، الأمر الذي يفرض أن ننظر إليه نظرةً موضوعية وأن نضعه في الإطار الزمني ونحلله تحليلاً علمياً .

وعندي أن المنهج الذي يجب أن يصدر عنه الطالب أو الباحث الأكاديمي هو المنهج الكلاسيكي أو مايمكن أن نسميه بالمنهج التكاملي الذي يجمع بين تلك المناهج ، كلّها أو بعضها ، ويكون عمدته المنهج التاريخي وفحص الوثائق من جهة ، ودراسة النص دراسةً علمية تستند إلى فهمه لغوياً وتذوقه جمالياً وإظهار دلالاته الوجدانية والإنسانية من جهة أخرى .

ولاشك في أن وراء كل عمل أدبي ـ شعراً كان أو نثراً ـ رؤيةً

خاصة . وهدف الباحث الادبي ان يصل إلى كشف هذه الرؤية وفهمها ، ومن هنا تبدو لنا علاقة البحث الأدبي بالنواحي التاريخية ودراسة الوثائق وتحقيقها ليتخذها سُلَّماً إلى الإحاطة بهذه الرؤية التي لاتتضح إلا بفهم النصوص من نواحيها اللغوية والجمالية وبيان دلالاتها الاجتماعية والنفسية والفلسفية .

إننا نقول إن هذه الرؤية لابد أن تكون ذاتية لأنها تعبّر عن معاناة الشاعر أو الكاتب ومحاولته لاستعادة توازنه النفسي فيما يبدعه من عمل أدبي . ولذلك لايمكن للنص أن يتخلّى عن الذاتية ولا يمكن لدراسته أن تتخلّى عنها، ومن هنا لا يمكننا، في دراسة الأدب ، أن نتخلّى عن الأحكام القيميّة .ولكن لتكن هذه الأحكام القيميّة مستندةً إلى عمق علمي .

علينا أن ننطلق من الوثائق ، ونلمَّ بأصول تحقيقها ، وندرس النص دراسةً خارجية تشمل (النواحي التاريخية والاجتماعية والنفسية . . .) ودراسةً داخلية تشمل (النواحي اللغوية والبلاغية والجمالية . . .) ، وهذا ماأردناه بمنهج البحث الأدبي الذي يتصدى هذا الكتاب لتبيانه ويفسر الأصول التي يجب على الباحث أن يتبعها في إعداد موضوعه ، والأصول التي يتبعها في تحقيق النصوص والمخطوطات ، والخطة التي يجب أن يسلكها في إنشاء بحثه في المستويات المختلفة من دبلوم وماجستير ودكتوراه ، وإغنائه بمضمون صحيح قوي وشكل سليم .